القيم الإسلامية والصليبية الوجه الآخرفى العلاقات المصرية الفرنسية

أ.د/ أسامة سيد على

أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية ووكيل كلية الاداب لشؤن التعليم والطلاب بجامعة قناة السويس

مقدمة:

خلق الله الانسان فى احسن تقويم وصوره فى اكمل صورة ، وكلفه بالخلافة عنه فى عمارة الارض ، ووعده بالخلود فى دار النعيم اذ استجاب لفطرته التى فطره عليها .

والفطرة السليمة هى تزكية النفس بمحامد الاخلاق ، وقد اجمعت كل الشرائع السماوية على ضرورة محامد الاخلاق ، واعتبرت ذلك متمما لعقيدة التوحيد ، والتزمت كل الانبياء بهذا المنهج الالهى .

واذا كانت اليهودية قد جاءت بعد عهد طويل من الوثنيات الضالة معتمدة فى تشريعاتها على التوراة ، وكانت عبارة عن مجموعة من الاسفار يقال انها اوحى بها الى سيدنا موسى _ عليه السلام _واطلق عليها اسم العهد القديم ، وكذلك التلمود الذى صنفه عدد من الاحبار فى القرن الخامس بعد الميلاد ، ونظرا لان اسفار العهد القديم قد كتبت على مدى يربو على تسعة قرون دون تدوين صحيح فقد اعتمد على التراث المنقول شفهيا ، ونتيجة لذلك فقد شابها كثير من الغموض بما يتنافى مع قيمها الصحيحة منها على سبيل المثال ما ورد فى " سفر التثنية " عن الحرب ان الرب خاطب موسى قائلا ((حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح ، فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واضرب جميع ذكورها بحد السيف ، واما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينة غنيمة اعطاك الرب الهك))

ومن خلال هذه العبارات يتضح لنا ان مع مرور الوقت حدث انفصام تام بين الشرع الالهى الصحيح ، وبين بنى اسرائيل حيث عادت تظهر من جديد على القيم اليهودية بصمات وثنية لا اخلاقية ، ومع هذه القيم المنحرفة فى الحرب تحجرت مبادئ الديانة اليهودية واصبحت لا حياة فيها .

ثم جاءت القيم المسيحية للتصدى لهذا الاتجاه المادى لليهودية ، وجاء السيد المسيح _ عليه السلام _ "ليهدى خراف بنى اسرائيل الضالة " وقد اطلق عليهم عليه السلام " ابناء الافاعى "

ومن هنا جاءت الديانة المسيحية الجديدة بقائمة من القيم الروحية الخالصة لتقنع الانسان بان الحياة المثلى ليست هنا ، ولكنها هناك فى ملكوت السماء .

وتجسيدا لهذه القيم الروحية ظهرت " الرهبانية " المتجردة كرد فعل للمادية المتوحشة ، وكما ورد فى انجيل " متى " الاصحاح الخامس قول السيد المسيح ((سمعتم انه قيل عين بعين ، وسن بسن ، واما انا فأقول لكم لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الأخر ايضا ، ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضا))

وفى موضع اخر يقول عليه السلام ((أحبوا اعدائكم احسنوا الى مبغضكم ، وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم))

ومن هنا رفض السيد المسيح استخدام القوة حتى دفاعا عن النفس وهو يقول فى عبارات بليغة ((رد سيفك الى مكانة ، لان كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون))

وهكذا جاءت القيم المسيحية لتخلص الناس من الواقع المادى الخسيس لتسموا بروحه لملكوت السماء بالزهد عن الدنيا .

واذا كانت العصور الوسطى فى فترة من فتراتها قد حملت اسم " عصر الايمان " فان فرنسا وبيزنطة بصفة خاصة تعتبران تجسيدا واقعيا لهذه العبارة بالوعى حينا وباللاوعى احايين ، الا ان هذه العصور مع مرور الوقت شهدت صراعا عنيفا وداميا بين البابوية والامبراطورية تمخض عن هذا الصراع فكرة فصل الدين عن الدولة مرددين القول المشهور " دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله " وهى مقولة حق اراد الاباطرة بها باطل ، لان جشع الاباطرة ومعهم الامراء تمخض عنه طابع هو بالضرورة مغروس فى اعماق نفوسهم يقوم على استخدام القوة فى معالجة امورهم كلها ، فظهرت الفروسية وافتخر النبلاء بالظلم حتى اصبحت الحَرب قاعدة حياة وسلكت غريزة المقاتلة مسلكها المحتد العاتى المنحرف .

وشيئا فشيئا تحولت غريزة القتال والمقاتلة حتى صارت قدرةمدمرة خرجت عن حدوداوربا فى شكل موجات استعمارية تظهر بين الحين والحين ولا تستكين .

ولا تزال الحروب الصليبية تمثل تجسيدا حيا لهذه القوة المدمرة وهو ما سنركز عليه فى هذا البحث موضحين نقطة واحدة وهى القيم الاسلامية فى الحرب مقارنة بالقيم الصليبية الوجه الاخر فى العلاقات المصرية الفرنسية .

وقبل ان نخوض فى صفحات هذا البحث نستعرض فى ايجاز شديد الاساس الذى قامت عليه القيم الاسلامية فى الحرب وذلك بعد ان تحدثنا عن القيم اليهودية والمسيحية وما شابها من تحريف وغموض فى مراحل تاريخها . فبعد فترة طويلة من الرسل تقترب من ستة قرون بعث الله محمدا " صلى الله عليه وسلم " خاتما للاديان، فكان لابد بعد مادية اليهود وروحانية المسيح وضع ضوابط وقيم جديدة تحكم البناء الانسانى فى الحرب وغير الحرب ، حيث جاءت القيم الاسلامية خاتمة للاديان هذه الخاتمية فى الدين والكتاب والنبوة اقتضت ان تقدم للانسانية انجح الحلول واقدرها واشملها .

ذلك لان الانسان بطبيعته دائما مطالب بالتوفيق بين مطالب الروح ومطالب الجسد بين مطالب الدين ومطالب الدنيا من اجل ذلك امرنا باتباع هذه القيم الاسلامية

ومن هنا يجب ان نلفت نظر القارئ الى نقطة هامة الا وهى عندما نتحدث عن القيم الاسلامية فى الحرب بالمقارنة بالقيم الصليبية لا يعنى ذلك اننا نقدح فى القيم المسيحية بروحانيتها المثالية لان هذه القيم بعيدة كل البعد عن القيم الصليبية التى اصطبغت بالصبغةالفرنسية وهى رافعة شعار الصليب والصليب منهم براء .

اما القول بأن الحرب الصليبية كانت حركة دينية ترتبط بالصليب رمز المسيحية فهذا كلام لا يمكن وضعه فى الاطار الصحيح ، فقد ثبت بالدليل المادى الذى لا يكذب ولا يحابى ان هذه الحرب كانت مغامرة استيطانية متعصبة اصطبغت بالصبغة الفرنسية ، اطلق عليها المؤرخون المسلمون من امثال " ابن القلانسى " وابن الاثير" وابن العديم " وابن واصل " وغيرهم مصطلح " الافرنج " وهى عبارة واضحة لا لبس فيها تشير الى الشعب الفرنسى الذى كان يمثل الاكثرية فى الحرب الصليبية تميزا عن غيرهم من شعوب اوربا الذين اطلق عليهم اسم الصليبيين .

وما لنا نذهب بعيدا وبين ايدينا الوثائق التى ذكرها المؤرخون مسلمون ولاتين معاصرون ولاحقون ،

والتى تؤكد على ان الشرارة التى اشعلت الحروب الصليبية انطلقت من فرنسا بالكلمة التى القاها البابا "اوربان الثانى " امام الاساقفة والرهبان واعداد من الأمراء والنبلاء فضلا عن الالاف من جمهور الحاضرين (١)

وايمانا منا بالاهمية الكبيرة لأقوال هؤلاء المؤرخون أعرض هنا فى عجالة مستعينا بمجريات الأحداث الطابع الفرنسى فى الحملات الصليبية ثم بعد ذلك اتناول القيم الحربية لهؤلاء

سبق وان تحدثنا عن الشرارة التى اطلقها البابا اوربان الثانى من فرنسا والتى شجعت كثير من المحاربين الفرنسيين على الإشتراك فى الحرب وماتلاها من حملات بدأت من حملة الامراء -الحملة الصليبية الولى - وكانت عبارة عن اربع مجموعات منها ثلاثة ذات طابع حيث كانت المجموعة الاولى مكونة من الامراء جود فرى دى بوايون امير لوترنجينيا واخيه بلدوين الثانى المبولونى وجماعة كبيرة من الأمراء يغلب عليهم جميعا الطابع الفرنسى وقد اتخذت هذه المجموعة طريقها الى الشرق عبر هنغيريا

وكذلك كانت المجموعة الثالثة فرنسية تحركت من فرنسا ايضا فى شهر اكتوبر سنة ١٠٩٦م بقيادة الامير ريموند الرابع دى تولوز ،وبروفانسى ويرفقه المندوب البابوى ادهمار.

ولا تختلف المجموعة الرابعة عن بقية المجموعات فقد كانت فرنسية ايضا تحركت تحت قيادة روبرت امير تورمانديا وصهره ستفن امير بلورا ، وعلى هذه نستطيع ان نقول ان الحملة الصليبية الاولى كانت معظمها فرنسية الطابع ، وحتى تتضح هذه الحقيقة يجب ان نعلم جميعا ان البابوية عندما دعت الى قيام الحملة الصليبية الثانية بعد سقوط الرها كان اول الملبين لها الملك " لويس السابع ملك فرنسا " فإذا انتقلنا الى الحملة الصليبية الثالثة فقد كانت تتكون من ثلاثة من ملوك اوروبا واحدا منهم كان" فليب اغسطس ملك فرنسا " الذى تحرك بجيشه حتى وصل الى ميناء عكا فى مارس سنة ١١٩١م وهناك ضرب الحصار عليها حتى سقطت

ومن ناحية اخرى يقال ايضا ان الملك فليب اغسطس مع بعض قلدة اوربا هو الذى دعا الى قيام حملة الأطفال لتخليص بيت المقدس من ايدى المسلمين وهو ما يدعوا الى الاسى و العجب من نفس الوقت من هذا الهوس الدينى الذى انتاب فرنسا فى ذلك الوقت.

ويجب ان لا ننسى ان الحملة الصليبية الخامسة واثناء حصار دمياط كانت هناك الامدادات تأتى الى الصليبيين بانتظام من فرنسا للمشاركة فى حصار دمياط حتى سقطت ولكن الله سلم وباءت الحملة بالفشل.

ويجب ان لا يغيب عن اذهاننا ان الحملة الصليبية السابعة قامت فيها الدنيا ولم تقعد على المسلمين من جانب فرنسا ايضا وذلك بعد استرداد بيت المقدس من ايدى الصليبيين حيث تم عقد مجمع ليون بفرنسا فى صيف سنة ١٢٤٥م وفيه تقرر ايفاد حملة صليبية جديدة الى الشرق وعلى الرغم من ان استجابة الغرب الاوروبى لم تكن سريعه لانشغاله بالصراع بين البابوية و الإمبراطورية الرومانية المقدسة .وعلى الرغم من عدم مشاركة ايطاليا والمانيا و انجلترا فى الحملة ، وعلى الرغم من ان الدعوة لم تلقى قبولا ايضا من كافة دول اوروبا ، على الرغم من ذلك كله الا ان فرنسا بجلالة قدرها انبرت تحت قيادة الملك لويس التاسع وتبنت بهذه الحملة ، حيث اخذ الملك لويس وهو الذى عرف بتقواه حتى نعت بالقديس- يعد لهذه الحملة ثلاث سنوات متواصلة ، وما ان انتهى من الإعداد حتى ابحر الى الشرق فى اواخر اغسطس سنة ١٢٤٨م بصحبة زوجته واخويه روبرت دى ارتوا وشارل

دى انجو. (٢)
ومما سبق يفضى الى الاعتقاد للوهلة الاولى ان معظم الحملات الصليبية كانت ذات طابع فرنسى وهو الطابع المسيطر على الحروب الصليبية فى الشرق الاسلامى كافة ،حتى اننا نستطيع ان نقول ان بمجئ القرن الثالث عشر للميلاد كانت البيوت الحاكمة فى كل من القسطنطينية وقبرص وانطاكيا وطرابلس وحيدا وعكا ويافا اما ان تكون فرنسية الاصل او الميول، وكذا فإن اللغة التى سادت فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام كانت اللغة الفرنسية القديمة حتى ان مؤرخا مثل كلونجون اعتبر ان الحركة الصليبية حركة توسعية فرنسية فى العصور الوسطى وهذا ما اكد عليه ايضا كل من المؤرخين المسلمين واللاتين .
الان وبعد ان اثبتنا بالحجة والدليل القاطع فرنسية الصليبيات نجد انفسنا بالضرورة امام الحديث عن القيم الصليبية فى الحرب وهى بالطبع قيم فرنسية من الدرجة الاولى .
ولحسن الحظ فإن لدينا معلومات رصدتها اقلام المؤرخين الذين كانو شاهدى عيان لمعظم المعارك التى دارت بين الطرفين الاسلامى والصليبى يمكن ان نستخلص منها هذه القيم .
ونبدأ هنا بالحديث عن ما ذكره " العماد الاصفهانى " عن قسوة الصليبيين فى القتال ووحشيتهم التى تفوق كل حد ، وهو شاهد عيان لمعظم المعارك التى دارت بين الجانبين الاسلامى والصليبى ، حيث قال .. ((والكفار قاتلوا جندا ورعية ، واستباحوا الأنفس متورعين ، فلا عجب بان زين لهم الشيطان اعمالهم ، وامدهم فى طغيانهم يعمهون ، ورفعوا التكليفات ، .. كأنما لفحت وجوههم النار وهم فيها كالحون ، زرقا كأنما عيونهم من حديد ، فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون ، قد نزع الله الرقة من قنويهم ونقلها الى عزوبهم ، واشتعلت نار جهنم فى فحم ذنوبهم ، فظاظغلاظ جهنميون كلامهم شرر ، وانفاسهم شواظ ، .. خلق الله الخلق من طين وخلقهم من حجارة)) (٣)
ونظرا لاهمية هذه الكلمات التى ادلى بها الاصفهانى والتى تندرج كلها تحت مسمى القيم الحربية الصليبية فانى ارى تفنيد هذه الكلمات مناقشا ما جاء فيها محللا وناقدا مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها مقارنا بينها وبين القيم الاسلامية فى الحرب .
لم يكن الاصفهانى بغافل عن حقائق الاحداث عندما وصف الصليبيين بالعدو الكافر ، وهذه حقيقة لا ريب فيها ، ولكن يجب ان نوضح ان الاصفهانى كغيره من المسلمين يؤمن بان السيد المسيح من الرسل والانبياء ، وان الموقف العدائى من الشخصية الصليبية وتكفيرها هو موقف سياسى محط وليس موقفا دينيا ، ثم استرسل الاصفهانى فى الكلام وهو يصف الفرنجة بالقسوة وجمود العاطفة الى حد الوحشية عندما استباحوا الانفس ، ويكفى ان نستعيد عبارة واحدة شديدة البلاغة وهى " نزع الله من قلوبهم الرقة ، وكأنهم خلقوا من حجارة وخلق الله الناس من طين " ثم استرسل فى الحديث عن فظاظتهم فى الحرب كانما لفحت وجوهم النار . (٤) ولم يكن الاصفهانى وحده هو الذى امن بهذه الحقيقة لذا اسمحوا لى الان فى سرد بعض الاحداث التى تؤيد كلام الاصفهانى مدعمين رأيه فى الصليبيين بالحجج والاسانيد من واقع الاحداث ، ونتحدث هنا عن ما ارتكبه الصليبيون من اهوال كانت تتسم بالقسوة والوحشية الشديدة فى انطاكية سنة ١٠٩٨م / ٤٩٦ ه ، وفى معرة النعمان حيث ذكر مؤرخنا ابن القلانسى (٥) ((ان الصليبيون مالوا على الناس وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، واحرقوا سور البلد ومساجده وقتلوا اكثر من عشرين الف رجل وامرأة وصبى)) .. لاحظ معى عبارات حرق المساجد وقتل عشرين الف من الصبيان والنساء .. وان كان البعض يرى ان هذا

العدد فيه شيئ من المبالغة فنحن نرد بالقول ، لم يكن الاصفهانى ولا ابن القلانسى وحدهما هما اللذان ذكرا هذا ، فهاهو ابن شداد (٦) يؤكد على هذه الحقيقة ايضا عندما قال ان الفرنجة قتلوا اعداد هائلة من المسلمين فى بيت المقدس وغيره .
وليس ببعيد ان يحاج احد من المدافعين عن القيم الصليبية بالقول ان جميع الامثلة التى ذكرناها كانت لمؤرخين مسلمين منحازين لبنى جلدتهم ، واذا فرضنا جدلا ان المؤرخين المسلمين قد بالغوا انحيازا او تفريطا ، وهذا ليس من المنطقى ولا من المقبول ، فدعونا هنا نأتى بوثيقة هامة تتضمن نفس المعنى ولكن لمؤرخ لاتينىكان شاهد عيان للاحداث وهو " وليم الصورى " الذى تكلم عن مذبحة اخرى ليست ضد المسلمين ولكن للاسف الشديد كانت من الصليبيين ضد المسيحيين من بنى جلدتهم البيزنطيين وهو يقول بالحرف الواحد ((ان اللاتين ابحروا على طول شواطئ البسفور عند مدخل البحر الاسود الذى يبعد عن القسطنطينية مسافة قدرها ثلاثون ميلا .. واخذوا جميع المدن والحصون الواقعة على الجانبيين بالعنف والقهر ، وزحكموا السيف فى رقاب سكانها ، كما اخذوا طريقهمالى الاديرة وذبحوا جميع الرهبان .. واشعلوا النيران فى الاديرة وبمن فر اليها معتصما بها ، ويقال انهم حملوا معهم من هذه الاماكن كميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر واثقالا كبيرة من الاقمشة ، وكان بهذه الاديرة الى جانب هذا كله كنوز واموال لا يحصيها العد ..)) (٧)
أى شهادة اكبر من هذه ، وأى عار لحق بهؤلاء فبدل من ان تخرج الحملة لتسقط القاهرة العاصمة الاسلامية فاذا بها تسقط القسطنطينية العاصمة المسيحية عن عمد واقتدار دون ان تبالى بأى قيم حربية ولا حتى قيم مسيحية ...
واستكمالا لهذا الجانب الذى يتحدث عن القيم الصليبية فى الحرب نأتى بوثيقة اخرى هامة تتضمن نفس المعنى ولكن ضد المسلمين ، وهى لمؤرخ لاتينى اخر هو " فوشيه دى شارتر " الذى قال ((ان الصليبيين اخذوا يفتشون اجساد القتلى من المسلمين بحثا عن الذهب والفضة ، ثم اخذوا يجمعون هذه الاجساد فى اكوام كبيرة يحرقونها حتى يسهل عليهم العثورلر على ما يريدونفى الرماد)) (٨)
اذن لم تغب تلك القيم الحربية الصليبية المتدنية عن فطنة المؤرخين اللاتين قبل المسلمين ، ولعل ما يقفز الى الذهن الان مباشرة تساؤل ملح عن القيم الاسلامية التى التزم بها قادة المسلمين لمقارنتها بالقيم الصليبية .
فى البداية وقبل الاجابة على هذا السؤال يجب ان نعلم ان الاسلام الان وامس وحتى تقوم الساعة هو دين مستهدف من قوى عديدة ، وان كان البعض قد انصف الاسلام واعترف بسموه وعظمته ، الا ان من حين الى اخر توجه اليه الاتهامات بالطعن فى قيمه السمحاء وخاصة فى مجال الجهاد معتبرين خطأ ان الاسلام دين حرب ودمار .
وانطلاقا من هذه القيم الاسلامية يجب ان نذكر ان الاسلام لم يفرض القتال عدوانا على احد كما هو متبع فى القيم الصليبية ، وانما فرضه للدفاع عن النفس والعرض والارض .
اذن القيم الاسلامية فى الحرب تقوم على تحطيم كل قوه معتدية ويظهر ذلك واضحا من خلال قول الله عز وجل ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)) (٩)
لاحظ معى هنا لفظ ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وليس تعتدون ، فالقوة هنا قائمة على استراتيجية الردع لمنع العدو لمجرد التفكيلا فى العدوان .

وانظر كذلك قول الله عز وجل " وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة " (١٠) .. وخلاصة القول تؤكد هنا على ان الحرب فى الاسلام تحكمها قيم قائمة على رد العدوان ودفعه ، لان الاسلام يدعوا الى السلام ولا يقبل الاستسلام .

ودعونا الان ننظر الى هذه القيم من زاوية اخرى بمعنى ماذا لو فرض على المسلمين القتال كما حدث فى الحروب الصليبية ، هنا وفى هذه الحالة يصبح القتال فرض عين على الجميع حتى تقاتل المرأة بغير اذن زوجها ، والولد بغيراذن والديه ، والعبد بغير اذن سيده .

وكما قال الرسول الكريم " صلى الله عليه وسلم " ((لاتتمنوا لقاء العدو واذا لقيتموهم فاصبروا)) (١١)

بعنى اذا كان القتال لابد منه نقاتل ونصبر على القتال حتى ولو اكرهنا عليه مصداقا لقول الله " عز وجل

((كتب عليكم القتال وهو كره لكم)) (١٢) . واستكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه ، والذى يختص بالقيم الحربية لدى المسلمين والصليبيين نذكر قيمة حربية اخرى خاصة بمعاملة الاسرى ، ودون الدخول فى تفصيلات يجب الا يغيب عن اذهاننا تلك المذبحة التى احدثها الصليبيون عقب سقوط بيت المقدس لابرياء عزل رغم الامان الذى منحوه للحامية الفاطمية ، فى هذه المذبحة لم ينجواشيوخ ركع ولا اطفال رضع ، فكان يوم تشيب له الولدان ، يوم سالت دماء المسلمين حتى غطت ارجل الخيل ، وقد شهد على هذه المذبحة العدو قبل الصديق فكانت وصمة عار فى جبين الغرب اللاتينى عامة والفرنسيين بصفة خاصة .

هذا المعنى نجده متمثلا ايضا عند" ريتشارد قلب الاسد " فى الحملة الصليبية الثالثة الذى قام بقتل اسرى مدينة عكا وهم عزل من السلاح رغم الامان الذى منحه لهم سنة ١١٩١ م / ٥٨٧ ه (١٣) والعبارات التى صرح بها المؤرخون اللاتين من امثال " وليم الصورى ، وفوشيه الشرترى ، وغيرهم لهى شهادة حق تدل على غدر الصليبيين ووحشيتهم مع الاسرى العزل من المسلمين .

ولا يعنى هذا ان المؤ رخين المسلمين لم يعرجوا على ما توقف عنده المؤرخون اللاتين، بل ذكروا ذلك بكل صراحة واسى ، ويكفى ان نذكر هنا مثال واحد فقط ورد لدى " اسامة بن منقذ " (١٤) .. وهو يدور فى نفس السياق ويحمل نفس المعنى اذ يقول ..((ان احد الفرسان المسلمين وقع اسيرا فى يد تنكريد امير انطاكية واحد زعماء الحملة الصليبية الاولى ، وهنا تفنن فى تعذيب هذا الاسير فقام الصليبيون بخلع عينه اليسرى ، ولكن لم يعجب ذلك تنكريد الذى اراد ان يخلع عينه اليمنى فقام بخلعها ، واصبح الفارس المسلم الاسير لا يرى)).. هذا النوع من التعذيب لم يرد فى أى شرائع سماوية ولكنها القيم الصليبية التى تميزت بالوحشية ضد الاسرى العزل ، فلا عجب ان يحدث هذا من احفاد الفرنجة والجرمان والوندال والقوط والبرابرة الذين قضوا من قبل على الاخضر واليابس داخل اوربا فى العصور الوسطى .

اما إذا انتقلنا الى القيم الاسلامية فى معاملة الاسرى بالمقارنة بالقيم الصليبية الفرنجية نجد العكس من ذلك تماما ، لذا كان واجب علينا توضيحها بادئ ذى بدء.

كان الرسول (ص) اذا اقر امير على جيش اوصاه بتقوى الله ونهاه عن قتل النساء والصبيان والرهبان والشيوخ والمرضى وهو يقول (ص) .. ((لا تقتلوا الولدان ولا اصحاب الصوامع))

فى هذا الحديث تحذير صريح وواضح عن عدم قتل الرهبان المتعبدين فى صوامعهم ،ولا النساء

والشيوخ والاطفال لأنهم لم يشتركوا فى الحرب ، قارن هذا بقتل الشيوخ فى مساجدهم والرهبان فى كنائسهم من قبل الصليبيين بعد سقوط بيت المقدس .

هذا القول من الرسول الكريم لا يحتاج الى تعليق وفيه غاية الدلالة على سمو القيم الاسلامية فى الحرب.

وعلى درب الرسول الكريم صار قادة المسلمين فى الحروب الصليبية ، فها هو عماد الدين زنكى يحسن معاملة الاسرى من الصليبيين ومن اهل الرها بعد سقوطها فى يديه ويخيرهم بين البقاء داخل المدينة آمنين او الرحيل (١٥) ،وها هو صلاح الدين يقوم بمعالجة الاسرى والعطف عليهم بتقديم الماء والشراب لهم ، بل اطلق صراحهم دون قيد او شرط من ماله الخاص بعد معركة حطين وفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ.(١٦)

لا شك ان قيم صلاح الدين الحربية هى بالطبع نابعة من القيم الاسلامية فى الحرب والتى تنظر الى الاسير نظرة عطف واشفاق ورحمة وقد اشار الى ذلك القران الكريم فى العديد من الايات ومنها على سبيل المثال قول الله عز وجل ((ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا)) (١٧)

ومع ان الرسول الكريم (ص) قد استوحى بالاسرى خيرا الا ان القيم الاسلامية قد اباحت قتل الاسير اذا كان الاسير شديد الخطورة ،وعلى اعتبار انه من مجرمى الحرب بالمصطلح الحديث .

وهذا ما حدث مع صلاح الدين عندما اطلق صراح الملك جاى لوز جنان ملك مملكة بيت المقدس ومعه عدد كبير من حكام الامارات الصليبية ولكنه قام بقتل الامير المتهور ارناط حاكم حصنى الكرك والشوبك وذلك جزاء له عما قام به من قتل المسلمين العزل اصحاب الكافلة الشهيرة التى كانت بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير فى قيام معركة حطين.

كما ان هذا الرجل -ارناط - هو الذى سولت له نفسه مهاجمة الحرمين الشريفين مكة والمدينة لضرب المسلمين فى مقتل من اجل هزيمتهم نفسيا بالاغارة على مقدساتهم.

فكان قتل أرناط هو جزاءا وفاقا لما اجترفت يداه من آثام ضد المسلمين العزل الابرياء .

وبصفة عامة فإن قتل الاسير فى القيم الحربية الاسلامية وهو استثناء وليس قاعدة كما هو فى القيم الحربية الصليبية .

والان نجد انفسنا بالضرورة أمام نقطة اخرى جديرة بالملاحظة وهى خاصة ايضا بالقيم الحربية الاسلامية والصليبية ونقصد بها التمثيل بالقتلى .

ففى الوقت الذى فهمت فيه القيم الاسلامية الحربية عن التمثيل بالقتلى وتعذيب الحى ، نجد ان القيم الصليبية اباحت ذلك بكل صراحة، ونعود هنا لما ذكرناه سابقا من تمثيل تنكريد وجنوده بالاسير المسلم وكيف تفننوا فى تعذيبه.

وكذلك نستعير عبارة فوشيه الشرترى مرة اخرى التى قال فيها ان الصليبيين احرقوا اجساد القتلى من المسلمين بحثا عن الذهب والفضة فى رمادهم . (١٨)

ومنعا للاطالة والتكرار دعونا ننتقل الى نقطة اخرى جديدة تحدث عنها المؤرخون المسلمون واللاتين وهى خاصة بشجاعة المقاتل الصليبى التى استحوذت على انتباه الكثيرين منهم ،وهنا يجب ان نلفت النظر اولا الى ان شجاعة المقاتل الصليبى لم تكن نابعة من عقيدة دينية تحث عليها ولا قيم حربية بل هى نتاج خلفية اجتماعية واقتصادية تحكمت فى تصرفات الفرنسيين الفرنجة فى العصور الوسطى، بمعنى ان الحروب الصليبية بقيمها الحربية تمثل فترة تاريخية تجلت فيها خصائص وسمات المجتمع

الاوربى عامة وفرنسا خاصة.
لقد كان فارس العصور الوسطى يتمتع بصفات حربية هى بالطبع عادات وتقاليد افرزها المجتمع عندهم مثل الشجاعة والصبر ، هذه القيم الحربية انعكست بطبيعتها على اوضاع الفرسان الصليبيين فى بلاد الشام ، ولعل هذا ما غاب عن ذهن المؤرخين المسلمين وهم يصفون شجاعة الصليبيين ، فلا غضاضة اذن إن نسمع اسامة بن منقذ مثلا يقول ((والافرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة .)) (١٩)
ويؤكد على هذه الحقيقة ايضا ابن شداد عندما تحدث عن قوة احتمالهم وهو يقول ((..وانظر الى صبر هؤلاء القوم على الاعمال الشاقة ..)) (٢٠)
ومع احترامنا الشديد لكلام المؤرخين المسلمين إلا اننا يجب ان نذكر ان هذه الشجاعة ما كانت الا نتيجة لتخاذل المسلمين وانقسامهم فى الفترة الباكرة من الحرب الصليبية، ومع بداية ظهور حركة الجهاد الاسلامى على يد عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود ثم صلاح الدين بدأت تظهر من جديد شخصية المقاتل المسلم بعقيدته الجهادية وهنا نرى الفرق بين الخلفية الاجتماعية والاقتصادية التى دفعت الى شجاعة المقاتل الصليبى وبين القيم الاسلامية التى كونت شخصية المقاتل المسلم الذى يقاتل هنا لرد العدوان من اجل الحصول على احدى الحسنيين ــ النصر ام الشهادة ــ غير مبالى بحياه فيزداد قوة ولا يعرف الخوف الى قلبه سبيلا وهو يرى ان الشهادة فى سبيل الله شرفا عظيما و درجة رفيعة يجب ان ينالها .
واى شجاعة هذه التى تكلم عنها المؤرخون وهى التى التصقت بالحذر الشديد عند الصليبيين ، فهى من وجهة نظرنا شجاعة زائفة تكونت فى غمرة الانتصارات السريعة التى حققوها على المسلمين ولكن الامر اختلف حين استوعب المسلمون الصدمة الأولى وبدأوا يتحولوا من الدفاع الى الهجوم .
هنا تحولت الشجاعة الى جبن شديد وتحول الاقدام الى حذر مروع وحيطه ، اذن هذه القيمة الحربية عندهم مغلوطة او على الاقل متناقدة .والدليل على ذلك ما قدمته لنا المصادر من امثلة عديدة تدل على حذر الصليبيين الذى يصل الى درجة الجبن ويكفى ان نذكر هنا ما قاله أسامة بن منفذ عن حذر الصليبيين البالغ ((.. والفرنجة لعنهم الله اكثر الناس احترازا فى الحرب..)) (٢١)
لاحظ هنا كلمة الاحتراذ فهى تعنى حذرا غير عادى ،حذر من نمط اخر يصل الى درجة الجبن ،لان الحذر العادى مطلوب وضرورى لكل الجيوش المتحاربة فى كل زمان ومكان ،ولو كان حذر الصليبيين هو الحذر الذى يمنع وقوع الاخطاء ما كان ليتحدث عنه أسامة بن منقذ وما ساق لنا الامثلة التى تؤكد على المبالغة فى هذا الحذر الذى يصل الى درجة الجبن.
وكما قال سميل المؤرخ الصليبى عن حذر الصليبيين البالغ(..إنهم اخذوا ينهجون نهجا دفاعيا فى حروبهم بعد الجيل الاول..)) (٢٢) ،ولعل هذا ما دعا الى اهتمام الصليبيين الشديد بالتحصينات فى الدفاع والهجوم، والامثلة على ذلك كثيرة ولا يتسع المقام لذكرها الان ، وجميعها تؤكد على اهتمام الصليبيين بالتحصينات .
وكل هذا يدل على تلك الشجاعة الزائفة التى تميز بها المقاتل الصليبى ، ومع هذه الشجاعة الزائفة فى قيم الحرب حرص الفرنجة كل الحرص على احراز نصر سهل حتى لو قام على السلب والنهب او قام على الغدر .
. وكما حدث سنة ٥٥٨م / ١٥٥٢م عندما هاجم ريتشارد قلب الاسد قافلة اسلامية كانت قادمة من

مصر وهو يتخفى فى زى اعرابى ، وقام وقام بنهب القافلة عن آخرها عندما كان حراسها يغطون فى نوم دون مبالى بأى قيم حربية سليمة .

ونقتبس هنا عبارة واحدة لابن شداد يؤكد فيها على نفس المعنى وهو يقول ((..ان الفرنج صحبتهم غير مأمونة الغائلة..)) (٢٣)

وفى نهاية المطاف ، وقبل ان نسدل اخر صفحة من صفحات هذا البحث تبقى هنا مقارنة يجب ان نشير اليها وهى خاصة بالقيم الاسلامية التى نهت عن الغدر فى الحرب وهى عبارة عن وصية هامة من خليفة المسلمين " ابى بكر الصديق " التزم بها كل القادة من بعده بدأ من " عمرو بن العاص " مرورا بصلاح الدين "، نهاية بحكام المماليك ، والى قيام الساعة ، حيث قال " رضى الله عنه " ((ايها الناس اوصيكم بعشر فاحفظوها عنى ، لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا انفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له ...)) ، وهناك العشرات من الامثلة والمواقف من واقع الحروب الصليبية التى تؤكد وتدل على تنفيذ تلك الوصية من جانب القادة المسلمين ، ويكفى ان نذكر هنا مثلا واحدا خاص باحداث الحملة الصليبية السابعة التى انتهت سنة ١٢٥٠ م / ٦٤٨ ه بأسر الملك " لويس التاسع " وتشريد جيشه بين قتيل وجريح واسير ، نذكر هنا كيف عامل المسلمون الاسرى بما فيهم الملك لويس نفسه بكل احترام وتقدير حتى تم فداءه بواسطة فرنسا (٢٤)

تلك هى روح القيم الاسلامية فى الحرب تنهى عن القتل والغدر ، ليس للانسان فقط بل للحيوان والنبات ايضا ، وذلك لان الاسلام يبنى ولا يهدم ، يعمر ولا يخرب ، وصدق الرسول الكريم اذ يقول " لكل غادر لواء يوم القيامة ، يرفع له بقدر غدره "

الهوامش :

١_ عن احداث الحملات الصليبية راجع .

ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، راجعه وصححه ، محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، ط . بيروت ٢٠٠٣م ، الاجزاء ٩، ١٠ ، ١١

سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحرب الصليبية ، الاجزاء ١،٢ ط . القاهرة ١٩٧١م

جوزيف ناسيم ، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى ، ط. دار المعارف ١٩٦٣ م

وليم الصورى، الحرب الصليبية ، ترجمة . حسن حبشى ، ط ، القاهرة ١٩٩١ م

٢_ محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، ط . القاهرة ١٩٦١ م

٣_ الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبَح ، ط القاهرة ١٩٦٥ م

٤_ نفسه

٥_ ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ١٩٠٨ م

٦_ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٤م

٧_ وليم الصورى ، المصدر السابق ـاعتمادا على الترجمة العربية ـ

٨_ فوشيه الشارترى ، الاستيطان الصليبى فى فلسطين ، تاريخ الحملة الى بيت المقدس ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، ط القاهرة ٢٠٠١ م

٩_ القرأن الكريم ، سورة الانفال ، الاية ٦٠

١٠_ القرأن الكريم ، سورة التوبة ، الاية ٣٦

١١_ حديث شريف ، صحيح البخارى

١٢_ سورة البقرة ، الاية ٢٨٦

١٣_ جاك دى فيترى ، تاريخ مملكة بيت المقدس ، ترجمة عبد الطيف الهادى السيد ، ط. لبيا ٢٠٠٥م

١٤_ كتاب الاعتبار ، تحقيق فليب حتى ، برنستون ١٩٣٠م

١٥_ سهيل ذكار ، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣٤ ، ط، دمشق ١٩٩٨ م

١٦_ نفسه

١٧ _ سورة الانسان ، الاية ٨

١٨_ ريموند اجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية ، ط الاسكندرية ١٩٩٠ م

١٩_ كتاب الاعتبار

٢٠_ النوادر السلطانية

٢١_ كتاب الاعتبار

٢٢ _ قاسم عبده قاسم ، صورة المقاتل الصليبى ، بحث منشور بالجمعية التاريخيةالمجلد السابع والعشرون ١٩٨١م

٢٣_ النوادر السلطانية

٢٤_ جوانفيل، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشى ، ط القاهرة ١٩٦٨ م